بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الانسان وعلمه البيان، وزوده بلطائف المعرفة الفطرية والمكتسبة في الروح والحواس والجنان، فقال وهو خير القائلين: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: 78] والصلاة والسلام على سيد المعلمين رسول رب العالمين القائل: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» متفق عليه. وعلى آله وصحابته مشعل المعرفة والهداية إلى العالمين.

وبعد فهذا البحث صغير الحجم أسلط فيه الضوء على أثر المتون العلمية في تنمية الملكة العلمية عند الطالب وآفاق تطويرها، ويشتمل على مقدمة وثلاثة مطالب وخاتمة حسب الخطة التالية:

خطة البحث:

- ✓ المقدمة: وتتضمن مدخلاً عاماً حول فلسفة القدرات المركوزة في الإنسان لاكتساب المعارف،
- ✓ المطلب الأول: الملكة وطرق تنميتها وفيه ثلاثة فروع:
  - الفرع الأول: تعريف الملكة لغة واصطلاحاً،
  - الفرع الثاني: طرق تنمية الملكة،
  - الفرع الثالث: عوائق تنمية الملكة وأسباب انحرافها،
- ✓ المطلب الثاني: المتون وأثرها في تنمية الملكة وفيه ثلاثة فروع:
  - الفرع الأول: تعريف المتون،
  - الفرع الثاني: أثر المتون في تنمية ملكة الحفظ،
  - الفرع الثالث: أثر المتون في تنمية الفهم وقوة التحليل،
- ✓ المطلب الثالث: آفاق تطوير التعاطي مع المتون وفيه ثلاثة فروع:
  - الفرع الأول: التصورات المنهجية لدراسة المتون،
  - الفرع الثاني: طرق الاستفادة من التقنيات الحديثة في دراسة المتون،

- الفرع الثالث: ضرورة انتقاء المتون ومراعاة قدرات الطالب،
- خاتمة: تتضمن النقاط البارزة في البحث.

المقدمة:

لقد ركب الله تعالى الإنسان تركيباً تميز به عن سائر المخلوقات وهيأه لإدراك جميع المدركات وتحليلها والاستدلال على المغيبات بآثارها.

فله مدركة ظاهرة وهي الحواس الخمس: حاسة اللمس، حاسة الشم، حاسة الذوق، حاسة البصر، حاسة السمع، والعلم الحاصل عنها يسمى بسيطاً من حيث التصورات، إلا أنه بعد رفعه إلى القوة الباطنة وتحليله يتحول إلى علم مركب.

وللإنسان قوة باطنة قسمها الغزالي إلى خمسة أقسام:

1- الخيالية: وهي التي تبقى فيها صور الأشياء المحسوسة بعد غيبتها من الحواس الخمس فتبقى في الخيال بعض تغميض العينين مثلا، وتسمى حساً مشتركاً،
2- الحافظة لذلك كالأحماض المثبتة للصورة بعد التقاطها، فتحفظ الصورة الملتقطة بالحواس وتثبتها في التجويف الأول في الدماغ وبحلول آفة فيه تختل هذه القوة.
3- القوة الوهمية: وهي قوة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ تدرك بها معاني غير محسوسة من المحسوسات الجزئية كالقوة الحاكمة أن الولد معطوف عليه وهذه القوة هي التي تحمل النفس على منع أشياء لا تتخيل ولا ترتسم في الخيال.
4- القوة الحافظة للمعاني وتسمى ذاكرة، وهي في التجويل المؤخر من الدماغ،
5- القوة المفكرة وهي في وسط الدماغ بين خزانة الصور وخزانة المعاني، وشأنها أن تركب بعض ما في الخيال مع بعض، وتفصل بعضها عن بعض بحسب الاختيار وهذه القوة خاصة بالإنسان. « منزان العمل: ص28/27 ».

وقد جعل الله تعالى هذه القوة خادما بعضها لبعض ليتمكن الإنسان من اكتساب العلوم النقلية والعقلية، ويميز بين الصحيح والسقيم، وبين الضار والنافع؛ لأنه مستخلف في الأرض ومستعمر فيها؛ ولأنه سر الله في هذا الكون المتميز عن كل المخلوقات،

وكلك إنسان له ملكة في اكتساب المعارف فما هي تلك الملكة؟ ذلك ما نتناوله في المطلب التالي وما تحته من فروع:

- ✓ المطلب الأول: الملكة وطرق تنميتها
- الفرع الأول: تعريف المكلة لغة واصطلاحاً:

الملكة في اللغة مأخوذة من ملك وهو -كما قال ابن فارس -: أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة فيقال: ملك الشيء ملكاً حازه وانفرد بالتصرف فيه، فهو مالك، ويقال: أملك العجين ملكاً قوى عجنه وشده، ويقال يملك نفسه عند الشهوة، وأملك لنفسه: أي أقدر على منعها من السقوط في الشهوة. «معجم مقاييس اللغة: 351/5، لسان العرب:528/3 ».

والملكة في الاصطلاح: صفة راسخة في النفس حيث تحصل في النفس هيئة بسبب فعل من الأفعال يقال لها كيفية أو حالة فإذا كانت تلك الهيئة سريعة الزوال سميت كيفية أو حالة، أما إذا تكررت تلك الهيئة ومارستها النفس حتى رسخت فيها صارت متعذرة الزوال، أصبحت ملكة كملكة الحساب، وملكة اللغة، وملكة الكتابة وغير ذلك. «التعريفات للجرجاني ص: 296، كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي: 1338/3».

يظهر مما سبق أن الملكة تختص بثلاث خصائص هي:

1- أنها صفة في النفس تعين الشخص على سرعة البديهة في فهم الموضوع وإعطاء الحكم الخاص به، والتمييز بين المشتبهات بإبداع الفروق والموانع، والجمع بينها بالعلل والأشباه والنظائر وغير ذلك.
2- أنها صفة مكتسبة وموهوبة تتحقق للشخص بالاكتساب والموهبة، يقول ابن خلدون: إن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعه في أصوله، ومالم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن «المقدمة: ص375».

ويرى البعض أن الملكة وهبية وليست كسبية، والحقيقة أنها وهبية وتنمى بالكسب.

3- أنها صفة راسخة كالنية التي تظهر في الأرض وتتجذر بالرعاية والعناية، وكذلك الملكة تبدأ ضعيفة ثم تتقوى وتترسخ في النفس فإذا ألقى المدرس على التلميذ

أصول مسائل العلم وقواعده العامة حصلت له ملكة لكنها ضعيفة فإذا توسع في الشرح وذكر الآراء المختلفة تجود الملكة وقوى، فإذا أصبح قادراً على إدراك العويص المستغلق، وأصبح المدرس لا يترك خفياً إلا وضحه وأعانه على إدراكه حتى أصبح مشاركاً للأستاذ في توضيح المشكل وفتح المغلق تمت له الملكة الراسخة.

- الفرع الثاني: طرق تنمية الملكة

إن الحفر عن كوامن المواهب العلمية والحرفية إنما يكون بالحفر بمقناطيس الفهم والموجه الناصح المربي والبعد عن معوقات الطلب التي تأتي في الفرع الموالي ومن أساسيات تنمية الملكة:

- علو الهمة والغيرة الإيجابية من ذوي الهمم من الأقران،
- تشجيع المحيط الأسري والاجتماعي مادياً ومعنوياً،
- ترتيب الأولويات والبحث عن المهارات، والأخذ من تجارب الناجحين من القدماء والمعاصرين؛ لأن لكل عصر وسائله الخاصة وهممه العالية، فإذا جمعت بينها تفوقت عليهم أو حذوت حذوهم على الأقل كقراءة سير أعلام النبلاء وكتاب علو الهمة ففيهما قصص تشبه الخيال لكنها واقعية.
- مجالسة العلماء والمثقفين والاستماع إلى محاضراتهم ونوادرهم الدقيقة، والتفكير في سر نجاحهم.
- قراءة الكتب المتخصصة في كل فن والبحوث الهادفة لتتمكن من تقرير القواعد واستنباط الخفي من الظاهر، وقوة الترجيح بين الآراء المختلفة واستحضار الأدلة والبراهين العقلية.
- هذا ولكل فن طرق خاصة به لتنمية الملكة فيه بعد حصولها على الجملة تدرك بالممارسة والتطبيق ويستأنس فيها بكتب المناهج ولا يوقف عندها لأن المهارات التربوية لا تنحصر في الزمان ولا في المكان ولا في الأشخاص، وإنما تتجدد كلما تطورت التجربة، والوسائل التكنلوجية والمادية.

- الفرع الثالث: عوائق تنمية المكلة

يعاني العالم الآن من تدني مستويات التعليم مع وفرة الوسائل وتيسر طرق المعرفة ومصادرها، وبتدني المستويات تدنت الملكة لاسيما في مجال العلوم الأدبية والفقه واللغة على الأخص ويرجع ذلك -حسب رأيي - إلى عدة أسباب:

أولاً: الانشطار الثقافي، فهناك طائفة تدَّعي المحافظة تدعوا للابتعاد عن كل ما هو جديد والالتزام بما هو قديم ولم تقدم قديمها في ثوب جديد بأسلوب ومنهجية، بل لم تدرك الواقع الزماني والمكاني والبشري الذي تعيش فيه، فكانت كأصحاب الكهف، وأصبح شكلها ونظرتها وأسلوبها منفراً من ثقافتنا الأصلية والتي من المفروض أنها أفضل منهم للملكة ولاستيعاب واحتواء المجتمعات الحديثة.

وهناك طائفة فتنتها حضارة وثقافة مستوردة مادية بحتة جعلتها في صراع داخلي مع ذاتها ومحيطها ومرجعياتها، فأثر هذا التنازع الداخلي على ملكتها فصارت كمشية الغراب لم تتقن محاكاة رخمتها، ولم تعد تحسن مشية غرابها الأصلية.

ثانياً: الانشطار التحولي

لقد تحولت البشرية -بسبب الثورة التكنلوجية – تحولاً غير مسبوق، سابق العقول فلم يترك مجالاً للنظر في الموازنة بين الضار والنافع من المستوردات الثقافية والاقتصادية والسياسية، وكان الخطر الأكبر من حظ المسلمين والعالم الثالث بصفة عامة؛ حيث لم يمكنه التدرج أو الانتظار حتى يستوعب الدرس، فالعولمة لا تنتظر؛ إما أن تركب في قطارها وإما أن تبقى وراء التاريخ.

وهذا القهر الحضاري يشكل عائقا آخر في تنمية الملكة ولم يكن كل المربين حكيماً ليسدد ويقارب، بل لم تكن المناهج والمقررات والمربون على حج التحدي والمنافسة التي تتطلبها مسارعة التفاعل الحضاري ووتيرته المتسارعة. «مقدمة الملكة الفقهية».

- ✓ المطلب الثاني: المتون وأثرها في تنمية الملكة
  - الفرع الأول: تعريف المتون

المتون: جمع متن وهو أصل الكتاب ومرجعه قال لبيد بن ربيعة -رضي الله عنه -:

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبـــر يجـــد متونهـــا أقلامهـــا

هذا من حيث اللغة، وأما من حيث الاستعمال العرفي فله إطلاق عام على كل كتاب، وله إطلاق خاص وهو المقررات للحفظ والدراسة في كل فن وتقابله الشروح والمطولات أو المصادر والمراجع،

وتنقسم هذه المتون إلى منظومة ومنثورة، وإلى موضوعية وعامة، فالموضوعية هي ما اختصت بفن واحد ومذهب واحد، والعامة ما اشتملت على أكثر من فن كاللؤلؤ النظيم في روم العلم والتعليم للشيخ زكريا الأنصاري الذي جمع فيه كل فن بذكر حده وفائدته، وشرحه الدكتور عبد الله نذير أحمد، وقد قسم العلوم إلى حسب الموضوعات ونظمت محتواه ترغيباً للطلبة، وألف السيوطي كتاب النقاية في أربعة عشر فناً، وشرحه إتمام الدراية بشرح النقاية، وقد نظمه العلامة: أحمد سيكرج المغربي نظماً جميلاً، كما نظم الزمزمي باب علوم القرآن منه، ونظم باب البلاغة منه العلامة: عبد الله بن الحاج حمى الله الشنقيطي.
وقد حض العلماء قديماً وحديثاً على حفظ المتون ونوهوا بحفظتها فقالوا: العلم فاز به الحفاظ، ويقول العلامة محمد سالم ولد عدود رحمه الله:

فمـــا شـــيء بـــأنفع في ســـباق مـــع الأقـــران مـــن حفـــظ المتـــون

ومن قوانين المحظرة الشنقيطية في خطوات طالب العلم:

كتـب إجـازة فحفـظ الرسـم إجـــازة تـــدريس أخـــذ العلـــم
ومـــن يقـــدم رتبـــة عـــن المحـــل مـــن المراتـــب المـــرام لم ينـــل

الفرع الثاني: في أثر المتون في تنمية ملكة الحفظ وقد ذكرنا في المقدمة أن هناك قدرات ذاتية مركوزة في الإنسان فطره الله عليها خلقة، وقد تكون قريبة المنال لقوة فطرية، وقد تكون بعيدة المنال تحتاج إلى قوة عزيمة وطول مراجعة كالأرض منها ما تكون مياهه سطحية ومنها ما هو قريب من ذلك على بعد متر أو مترين ومنها مياه جوفية على سبعين أو خمسين متراً ومنها ما لا ماء فيه إلا موسمياً كذلك قابلية الإنسان للحفظ على كل هذه

المستويات، لكن دراسة المتون التي تجمع بين القوة الباطنية والنظر والسمع والقراءة تنمى لتلك الحافظة وتركز فيها المعلومات فما حصل عن تعب ضم به صاحبه فكان أبقى، فسريع الحفظ سريع النسيان سطحي الفهم في الغالب، وقديما قيل: من حفظ المتون نال جميع الفنون، ومن حفظ الأصول نال الوصول، وقال أحد المالكية على لسان المدونة:

قالت مسائل سحنون لقارئها بالدرس يدرك منا كل ما استترا
لا يكسب العلم بطال ولا كسل ولا ملول ولا من يألف البشرا

وقد أثبتت التجربة أن مدارسة المتن الواحد تسهل سائر المتون لتدريب الحافظة على تخزين المعلومات ورياضة الطالب على التركيز والمراجعة.

الفرع الثالث: أثر المتون في تنمية ملكة الفهم

إن النظر والقراءة والاستماع إلى المتن بعدسات الحواس مرفوع إلى المفكرة التي أشرنا في المقدمة إلى أهميتها في قوى النفس فهي كالملك، وكثرة تكرار المعلومات عليها يزيدها يقظة وقد ساق الغزالي في ميزان العمل مثالاً مقرباً فقال: القوة المفكرة مسكنها وسط الدماغ بمنزل الملك يسكن وسط المملكة والخيالية التي مسكنها مقدم الدماغ جارية مجرى صاحب بريده إذ مجتمع الأخبار عنده والحافظة التي مسكنها مؤخرة الدماغ جارية مجرى خادمه والقوة الناطقة جارية مجرى ترجمانه والعاملة جارية مجرى كاتبه والحواس جارية مجرى الجواسيس، وأصحاب الأخبار الصادقة اللهجة فيما يرفعونه من الأخبار فيلتقط كل واحد الخبر من الصقع الذي وكل به؛ إذ البصر موكل بعالم الألوان والسمع بالأصوات وهكذا الجميع، فيرفعون هذه الأخبار إلى صاحب البريد وصاحب البريد يسقط ما يراه حشوا ويرفع الباقي صافياً إلى حضرة الملك فيميزه ويعرف منافعه ومضاره، ويسلمه لخادمه إلى وقت الحاجة فحينئذ يتقدم بإخراجه «ميزان العمل ص: 33».

ورقابة المعلم الناجح على هذه القوى وسلامة استخدامها وعدم تعطيلها هو الذي يوصل إلى المقصود كما قال الإمام الشافعي -رحمه الله -:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرنـــــي بـــــأن العلـــــم نـــــور ونـــــور الله لا يـــــؤتى لعـــــاص

✓ المطلب الثالث: آفاق تطوير التعاطي مع المتون.

- الفرع الأول التصورات المنهجية لدراسة المتون.

لقد أخفقت المؤسسات التعليمية في المواءمة على تدريس المتون في ظل تزاحم المواد في التعليم النظامي في ذلك أن هذه المتون ألفت وقررت في ظل تعليم يرى وجوب وحدة المادة حتى يتقنها الطالب ثم يتجاوز إلى غيرها وعبَّر عن هذه الصرامة من قال:

وعن ترادف الفنون المنع جا إذا توأمان استبقا لن يخرجا

وعليه فإن على المؤسسات التعليمية وخصوصا الشرعية منها أن تعيد النظر في هذا الواقع ولا تكلف الطالب والأستاذ بما لا يمكن إنجازه.

فإما أن تضع متونا مختصرة جديدة نظما ونثرا في كل مادة.

وقد بدأت بهذا المشروع في القواعد فاختصرت المنهج المنتخب في ثمانين بيتا، والقواعد المقاصدية في ستين بيتا، والتاريخ الإسلامي في نحو مائة بيت، ويمكن أن نطبق ذلك في جميع المواد.

الخيار الثاني: أن نبقى على نفس المتون بعد حذف ما يمكن حذفه منها.

ونركز على جانب بناء الملكة وأساسيات البحث العلمي؛ لأن ذاكرة الإنسان أصبحت فريدة فيحتاج فقط إلى الأهلية الذاتية، ومفاتيح العلوم، وقد قيل قديما: كان العلم في صدور الرجال، ثم صار في بطون الكتب، ومفاتيحه في صدور الرجال، ويمكن أن نقول الآن بدل بطون الكتب في لوحات الأجهزة.

- الفرع الثاني : طرق الاستفادة من التقنيات الحديثة في التعاطي مع المتون: يمكن لطالب العلم في عصر المعلوماتية أن يحفظ جميع المتون عن طريق التسجيل الصوتي بالتكرار عن طريق الهاتف أو اللوحات الأخرى.

كما يمكنه تسجيل الدروس وشروح الأساتذة لمراجعة معاني المتون والاستفادة من مناقشات واستشكالات الطالب أثناء الدرس.

ويستطيع بضغطة زر أن يطلع على كافة شروح المتن عن طريق المكتبة الشاملة.

إلا أنه من الخطورة بمكان أن تستقي المعلومات من مواقع مجهولة أو عليها علامة استفهام؟ لأن هذا العلم دين فاختر عمن تأخذ دينك.

ومن الوسائل التقنية إمكانية تشجير المواد بطريقة معلوماتية سهلة، وقد طبقها بعض الدكاترة في شروحهم للألفية.

وقام الشيخ حمدا ولد اتاه الشنقيطي بجدولة الفقه المالكي في أقل من أربعين صفحة.

وجدولة المنطق، والبلاغة، وعلوم الحديث، والموافقات للشاطبي.

كل هذه المحاولات للخروج من أزمة المواءمة بين موروثنا التعليمي، وواقعنا المعاصر.

ولا شك أن مواهب الطلبة وتأسيسهم المعرفي متفاوت تفاوتا كبيرا يتطلب التنزل من المربي، فالبطيء أمير الركب كما يقال.

الفرع الثالث: ضرورة اقتناء المتون ومراعاة الطلبة:

إن الواقع الذي ذكرنا في الفروع السابقة ليتطلب منا استقراء ما كتب في المتون في كل فن وتشكيل لجنة مختصة مخضرمة الثقافة لتختار ثلاثة متون في كل فن ويكون ذلك باعتبار المعايير التالية:

1- سهولة المتن ووضوح عبارته.
2- استيعابه للفن الذي ألف فيه.
3- توفره أو توفيره لسائر الطلبة.
4- سلامته من الأخطاء الشكلية والجوهرية.
5- شهرته؛ إذ قد نهى العلماء عن الكتب الحديثة التأليف التي لم تقع في يد العلماء.

خاتمة:

من خلال هذه الورقات المتواضعة نستطيع أن نرصد النقاط التالية:

- إن تنمية الملكة عملية تربوية وأساسية في التكوين.
- إن المتون العلمية هي أساس فقه المثقفين في كل فن.
- إن الحفاظ على موروثنا الحضاري وتقديمه بشكل منافس يتطلب تكاتف الجهود وتسخير الإمكانات لذلك.
- إنه لا يمكن أن يقوم بهذه الدور إلا من جمع بين التعليم الأصلي، والنظامي.
- وأخيرا أقول إن هذه العناوين كلها يمكن أن يكون موضوع بحث مستقل يشخص فيه الواقع وتستعرض فيه الحلول.

والله ولي التوفيق.

د/ محمد عبد الرحمن الشيخ محمد